مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية
العدد 6A
آب 2024
August. 2024
Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences
No. 6A
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

رابعة العدوية في كتاب شهيدة العشق الالهي

م.م. ماجد حميد نهاي
مديرية تربية المثنى
maged605@gmail.com
07809361650

الملخص:

درس الدكتور عبد الرحمن بدوي رابعة العدوية دراسة تحليلية نقدية، وفق المنهج التاريخي التحليلي النقدي من خلال عرض الروايات التاريخية ومن ثم نقدها وفق المنهج العلمي بغية الوصول الى نتائج تاريخية محكمة، أذ أن رابعة قد فتحت صفحة جديدة في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية، وهي من السابقات التي وضعت قواعد الحب والحزن في هيكل التصوف الإسلامي، أذ كانت مغمورة بنزعة الحب حتى وصل الى درجة العشق الالهي، وهي من المجاهدات في الانقطاع لله تعالى ، والانصراف عن الملذات الدنيوية، وإماتة الشهوات وارتفاع بالمضمون الروحي الباطن مع الوفاء بالحياة الروحية العالية.

الكلمات **المفتاحية** :رابعة العدوية ـ كتاب شهيدة العشق الالهي

Rabi'a al-'Adawiyya in the Book "The Martyr of Divine Love"

A.L. Majid Hamid Nahi
Muthanna Education Directorate

The Analytical and Critical Study of Dr. Abdul Rahman Badawi's Lecture on Rabi'a al-'Adawiyya, According to the Historical-Analytical-Critical Approach ,This study presents the historical narratives regarding Rabi'a al-'Adawiyya and then critically analyzes them using the scientific method, in order to reach well-founded historical conclusions. Rabi'a opened a new chapter in the history of Islamic spiritual life. She was a pioneer who laid the foundations of love and grief within the framework of Islamic Sufism. She was immersed in the tendency of love to the degree of divine love. She was among the strugglers in detachment from all but God Almighty, turning away from worldly pleasures, mortifying desires, and elevating the inner spiritual content while upholding a lofty spiritual life.

Keywords; Rabi'a al-'Adawiyya, The Martyr of Divine Love

المقدمة:

بحث الدكتور عبد الرحمن بدوي رابعة العدوية بمنهجية تاريخية ، من خلال كتابه الموسوم(شهيدة العشق الالهي)، وتناول به أهم المصاعب التي واجهته في البحث عن رابعة العدوية، وكذلك درس سيرتها منذ نشأتها الاولى التي كانت محاطة بالأساطير، ثم توبتها بفضل الله، وكذلك تناول اهم ادوات العبادة عند رابعة، وعهد التنقل في حياتها، وحلل الكثير من الروايات التي كان فيها الخلط واضحا بين رابعة العدوية البصرية، ورابعة الشامية، وتطرق الى حبيبها الوحيد وهو الله عز وجل ، اذ هي أول من تكلم في الحب الالهي لدى الصوفية المسلمين، وأشار الى الجانب العاطفي في الحب عند رابعة، والى الجانب الايجابي في رسالتها، وكذلك الى رابعة وجهاً لوجه مع الله تعالى، وموضوع الفناء في الله وعبادة الالم، وحملة

رابعة على الأخرويات وانكارها حقيقة الجنة والنار، واهم كراماتها التي كانت منسوبة اليها ، وقبرها وتاريخ وفاتها الذي اختلف عليه المؤرخون حتى رجح لنا عامين الاول 180هـ و 185هـ، وكذلك ذكر لنا اهم الاخبار المنشورة وغير المنشورة لرابعة العدوية، علها تفيد الباحثين في الدراسة عنها.

رابعة العدوية في كتاب شهيدة العشق الالهي

درس الدكتورعبد الرحمن بدوي رابعة العدوية من خلال كتابه(شهيدة العشق الالهي) الذي ضم على 196 صفحة، توزعت على ذكرمؤلفاته ثم فهرس الكتاب الذي احتوى على استهلال ثم خمسة عشر محوراً: مصاعب البحث في رابعة، نشأتها الأولى بالأساطير، توبتها بفضل الله، أدوات العبادة عندها، عهد التنقل في حياة رابعة، الخلط بين رابعة الشامية ورابعة البصرية، حبيب رابعة الوحيد هو الله، الجانب العاطفي في الحب عند رابعة وتمييزها بين نوعين من الحب، الجانب الايجابي في رسالة رابعة، رابعة والله وجهاً لوجه، الفناء في الله وعبادة الألم، حملة رابعة على الأخرويات وإنكارها حقيقة الجنة والنار، الكرامات المنسوبة إلى رابعة وصياغتها وفقاً للنموذج العام للصوفي، أسطورة رابعة، تاريخ وفاة رابعة والاختلاف حوله، ثم تناول أخبار رابعة في النصوص المنشورة والغير المنشورة، ثم ختم الكتاب بفهرس الكتب، وفهرس الاعلام ، وقد طبع الكتاب في مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية ، للسنة 1962م.

استهل المؤلف كتابة بالتطرق الى بيئة رابعة العدوية وهي مدينة البصرة في العراق، التي تعتبر نقلة بين البادية والحضر، بين الخشونة الزاهدة الصلبة القاسية الايمان وبين الترف الناعم الهائم في أوداء القداسة الشهوانية، ولذا جاءت مزيجاً من هذين الطرفين المتباعدين في تخطيطها ومساق الحياة فيها، وكانت روحها مسرحاً لمأساة هذا الازدواج المتوتر العنيف في طبيعتها، وبهذا الاستقطاب طبعت نفوس ساكنيها: ففي روح كل تسكن طبيعتان متعارضتان: احداهما تتلمس من قوت الحواس، والأخرى تستشرف إلى قوت القلوب، ولن تستطيع إحداهما القضاء على الاخرى، بل سيظل التعارض قوياً عنيفاً، فإلى جانب الحياة اللاهية التي عمرت بها القنوات والمتاجر مما كان خير إطار لقصص (الف ليلة وليلة)، هناك الربط التي تشيع فيها الزهادة والقداسة والى جانب الاسواق الصاخبة بمشاغل المادة وشؤون الدنيا، كانت المساجد والمكتبات العامة بمثابة معابد للفكر الرفيع، ففي ساحة السوق – حيث ضجيج الاعمال وعقد الصفقات، واختلاط الاجناس الوافدة من شتى الاصقاع، وأسباب الترف، كان يقوم المسجد الجامع الثاني الذي كان أفخر مساجدها حتى لم يكن له في العراق بأسره نظير، وهناك مجلس الحسن البصري تسوده رهبة ذلك الزاهد، وهو يلقي مواعظه الضاربة في فيافي الزهد، وهناك في زاوية اخرى ترى العابدين العازفين عن الدنيا، من امثال ابن ابي عيينة ، ورياح بن عمرو القيسي ممن لايعرف غير البكاء والتهجد والتضرع والصراخ من أعماق الهاوية الى الله ، واستطرد المؤلف في القول: ياسادة فهلموا معي الى كوخ وضيع ، ولكنه عامر بالقداسة تسكنه عجوز سحلت مريرتها وقد ذرفت على الثمانين[1]، (كأنها الشن تكاد تسقط)[2]، كل ما في البيت قطعة من البورى الخلقن ومشجب قصب فارسي طوله من الارض قدر ذراعين، وستر جلة، وليس فيه من الادوات الا حب وكوز ، ثم لبد هو فراشها وهو مصلاها، اما المشجب فلم يكن يحوى شيئاً من الملابس لأنها لا تكاد تملك منها شيئاً، وإنما كان يحمل أكفانها، فكانت تستخدم هذا المشجب، بما عليه من أكفان، كيما تضع أمام عيونها موضوعاً للتأمل، أثناء الذكر العقلي[3] .

1) شهيدة العشق الالهي، ص3-6.
2) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج2، ص244.، الشعراني، لواقح الانوار في طبقات الاخيار، ج1، ص56.
3) شهيدة العشق الالهي، ص6.

درس المؤلف المحور الاول بعنوان(مصاعب البحث في رابعة العدوية)، وأشار الى رابعة العدوية الصوفية المسلمة التي قضت عمرها منذ توبتها وهي تحترق بنار الحب الالهي، حتى آلت في آخر حياتها إلى تلك الحال التى كانت بحق شهيدة العشق الالهي كما وصفناها، وليس لنا، ويا للأسف من الوثائق ما يسمح بتأريخ تطورها الروحي على نحو مفصل أو شبه مفصل، كما هي الحال بالنسبة الى القديسة تريزا الآبلية مثلاً، ولئن كان المؤرخون للتصوف المسيحي يشكون من فقر الوثائق عن الفترة الأولى من حياة القديسة تريزا، مع أن لها ما لها من الترجمة الذاتية والمؤلفات الخاصة التي تشير فيها الى شوارد من حياتها، فماذا يقول مؤرخ التصوف الإسلامي لا عن الفترة الاولى من سيرة رابعة فحسب، بل عن حياتها كلها، وهو لا يكاد يملك وثيقة واحدة يستطيع الاطمئنان اليها، وحتى الوثائق المتهمة الضاربة في نطاق الاسطورة ضئيلة، فقد اختلط الأمر فيها الى أبعد حد لعدة اسباب، أهمها أن لها سمية أخرى تدعى بنفس الاسم أو على الاقل باسم لا يكاد يفترق عن اسمها إلا بنقطة، مما كان مثاراً للخلط الفاحش في ايراد أخبارها[1].

تطرق المؤلف الى المحور الثاني بعنوان(نشأتها الأولى محاطة بالأساطير)، وذكر أن رابعة نشأت في بيت فقي كل الفقر[2] .

ونحن نعلم من المصادر الأخرى أنها مولاة آل عتيك[3]،وآل عتيك بطن من بطون قيس، ولهذا أطلق عليها الجاحظ اسم رابعة القيسية[4]، ومن آل عتيك بنو عدوة، ولهذا تسمى أيضاً رابعة العدوية، أما كنيتها فهي أم الخير، واورد المؤلف عدة مشاكل اهمها: الولاء ، وبيعت ثم تحريرها ، وابوها فارسي، ورجح المؤلف اراءه بتلك المشاكل: فان ولاؤها كان من جانب ابيها واسرتها ، وان اباها لم يكن عبداً ، واستبعد العنصر الفارسي في المذهب الروحي الذي كانت تدين به أسرتها قبل اسلامها، واورد عدة تساؤلات وكان اهمها ما يتعلق بنشاة التصوف الاسلامي ، لأن رابعة العدوية تنتسب الى الجيل الاول من الصوفية المسلمين الحقيقيين الذين أشاعوا في التصوف روحاً جديدة كل الجدة على التطور العام للحياة الروحية في الاسلام، والنغمة الجديدة التي ادخلتها رابعة في التصوف الاسلامي من العسير، ألا نفترض فيها أصولاً سابقة صدرت عنها ، أصولاً كانت على شعور بها أو لم تكن[5] .

ويذكر المؤلف ان رابعة العدوية لما كبرت وتوفى والدها وهي لاتزال في ريعان الصبا، حدث في البصرة قحط، فتفرقت وأخواتها الثلاث، فراها ظالم أسرها وباعها بستة دراهم لرجل أثقل عليها العمل، واشار المؤلف الى رواية مفادها: ان رابعة العدوية كانت تسير ذات يوم فشاهدت رجلاً غريباً، ظل يرمقها بنظرة مضمراً لها الشر، فهربت وسارت في طريق دمشقها هي الاخرى، ثم ارتمت على التراب وظلت تناجى ربها: إلهى أنا غريبة يتيمة، أرسف في قيود الرق، لكن غمى الكبير هو أن أعرف: أراض أنت أم غير راض؟ فسمعت صوتاً يقول: (لاتحزنى ! ففي يوم الحساب يتطلع المقربون في السماء اليك ويحسدونك على ما ستكونين فيه)، فلما سمعت بهذا الصوت عادت الى بيت سيدها، وصارت تصوم وتخدم سيدها وتصلى لربها متهجدة طوال الليل، تلك هي الفترة الحاسمة في حياة رابعة العدوية وفقاً لهذه

1) شهيدة العشق الالهي، ص7.
2) شهيدة العشق الالهي، ص9.
3) ابن خلكان، وفيات الاعيان، القاهرة، 1275هـ-1858م، ج1، ص256.،ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، دار الكتب المصرية، 1923م، ج1، 33.
4) البيان والتبين، القاهرة، 1332هـ، ج3، ص85.
5) شهيدة العشق الالهي، ص9-10.

الرواية، فلو أخذنا بها لقلنا إن الانصراف إلى الزهد وابتداء الرسالة الروحية، إنما هيأ لها ما كانت تعانيه في رقها وما احتملته إبان ذاك من آلام وذل ومهانة، فلم تجد خلاصاً أو بالأحرى عزاءاً لها عن ذلك الحال إلا في الايمان والثقة بالله والتعزي بالأخرة عما تلقاه في الدنيا، وأشار المؤلف الى رواية اخرى فيقول: أن سيدها استيقظ ذات ليلة، ونظر من خوخة أو خصاص في الباب، فرأى رابعة ساجدة تصلى وتقول:(إلهى! أنت تعلم أن قلبي يتمنى طاعتك، ونور عيني في خدمة عتبتك.، ولو كان الأمر بيدي لما انقطعت لحظة عن خدمتك، لكن تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عبدتك)، وخلال دعائها وصلاتها شاهد قنديلاً فوق رأسها يحلق وهو بسلسلة غير معلق، وله ضياء يملأ البيت كله، فلما أبصر هذا النور العجيب فزع ونهض من مكانه وظل ساهداً مفكراً حتى طلع النهار، هنالك دعا رابعة وقال: (أي رابعة! وهبتك الحرية، فإن شئت بقيت هنا ونحن جميعاً في خدمتك.، وإن شئت رحلت انى رغبت!)، ما أجملها فرصة إذن بالنسبة إلى رابعة! فما كان منها إلا أن ودعته وارتحلت، ثم انقطعت للعبادة والتقوى[1].

صارت رابعة إذن حرة، فلها أن تسلك سبيلها أتى شاءت، وقد أشار المؤلف الى ثلاثة أسباب مجتمعة، أدت الى الانقلاب الحاسم في حياة رابعة العدوية، فكان الاول : أن رابعة لما أعتقت اندفعت بفضل الحرية التي وهبت لها الى المشاركة في الحياة الدنيا، فانطلقت رابعة تسعى لرزقها، فلم تجد غير حرفة العزف على الناي والاطراب[2]، فقد اندفعت في طريق الشهوات الى مدى بعيد، فهذه المهنة في ذلك العصر كان من غير الممكن أن تستقل بنفسها، ولا تكون بمنجاة عن ألوان الإغراء، فكانت أبان انتهابها اللذات، تخلو إلى نفسها بين الحين والاخر، وتتذكر تلك الرسالة التي ألهمتها، والسبب الثاني: هو إمكان غشيانها مجالس الوعاظ في مساجد البصرة، وبخاصة مجلس الحسن البصري، فضلاً عما عساها أن تكون لقيته، من صوفيه وزهاد مثل رياح بن عمرو القيسي الصوفي الكبيرالذي حملها على اطراح حياتها اللاهية، وهذا ما قد يفسر الصلة القوية التي قامت بينهما، اما السبب الثالث: فلربما قد واكبت تجربة يائسة من دنيا الناس، كأن تكون تجربة حب مخفق يستشرف إلى سراب زواج أو ما إليه، فذكريات الماضي الداعي الى التقوى والمواعظ مهما يبلغ تأثيرها عن طريق المثل الحي الصديق لا تكف لتفسير ما حدث لديها [3] .

أن رابعة أحست بأن الحرية التي نشدتها ليست في الانطلاق بين ملاذ الدنيا، فهذه عبودية لعلها أعنف وأشد إرهاقاً من تلك التي كانت فيها، ولعلها سمعت آنذاك قول معاصرها الأكبر منها – وقد كانت قداسته تملأ الدنيا في ذلك الحين، الا وهو إبراهيم بن أدم لما أن قال: (الحر من خرج عن الدنيا قبل أن يخرج منها)[4] .

بحث المؤلف المحور الثاني بعنوان(توبتها بفضل الله)، أذ ان توبة رابعة لاتتم بالمجهود بقدر ما تتم بالفضل من الله روى القشيرى[5].

وأشار المؤلف الى ان رجل قال: لرابعة انى قد أكثرت من الذنوب والمعاصي، فلو تبت، هل يتوب على؟ فقالت: لا، بل لو تاب عليك لتبت، فهي كانت لا تثق في قدرتها على الظفر بالتوبة لمجرد استغفارها وإقلاعها عن الذنوب، بل كان لابد من رضا الله: فهو وحده الذي يتوب على الناس المخطئين.، فلو لم يتب

1) شهيدة العشق الالهي، ص12-15.
2) شهيدة العشق الالهي، ص16.
3) شهيدة العشق الالهي، ص16-19.
4) الكمشخانوي، أحمد ضياء الدين ، جامع الأصول في الاولياء وانواعهم، القاهرة، 1328هـ-1910، ص522.
5) الرسالة القشيرية، باب التوبة، القاهرة، 1330هـ-1912م، ص48.

لم تتحقق لديهم التوبة، فتوبة رابعة العدوية لم تتم دفعة واحدة، بل كانت طوال حياتها في توبة مستمرة، فمن التقصير في الفهم إذن أن نعد هذه مرحلة في تطورها الروحي، وكل ما يحق لنا قوله هو التحدث عن ابتداء فعل التوبة، والا فحياتها كلها كانت توبة متصلة [1] .

تناول المحور الرابع وعنونه(أدوات العبادة عندها)، وذكر أن رابعة عندما بدأت في التوبة، وفتحت صفحة جديدة من حياتها الروحية التي هي مزيج من القلق والاستغفار والشوق إلى المحبوب الجديد الذي إتخذته لنفسها، أصطنعت بعض الادوات في السير نحو الطريق الى الله منها: التهجد، وقيام الليل: تصلي وتدعوا وتقرأ ما تيسر من آيات القران الكريم، ثم استذكار الموت [2] .

فكل المصادر تجمع على انها كانت تقوم الليل كلهن قال ابن الجوزي في (صفة الصفوة) بعد سلسلة من الأسانيد تنتهي عند بنت أبي شوال، وكانت من خير إماء الله تعالى، وكانت تخدم رابعة، قالت: (كانت رابعة تصلى الليل كله، فإذا طلع الفجر، هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهي فزعة: يانفس! كم تنامين! وإلى كم تقومين! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور- قالت: فكان هذا دأبها، دهرها، حتى ماتت)[3] ، ويلوح أنها كانت حريصة كل الحرص على التهجد، ويدل على هذا أنها ما كانت تنقطع لحظة عنه حتى تشعر بالزواجر تترى عليها لتردها الى سالف سنتها، أذ كانت تقوم كل ما يتصل بالتهجد الذي كان يقضى في قراءة القرآن الكريم وذكر الله، وكانت تقوم الليل ، إما مفردة وحيدة أو مع أصحابها وصواحبها، أما من ادواتها الأخرى التي كانت تستخدمها للتواجد فهي كما قلنا استذكار الموت، ولهذا اتخذت مشجب قصب طوله من الارض قدر ذراعين عليه أكفانها كيما تتأمله على الدوام فتتعظ بكل المعاني التي تتضمنها فكرته، وتجتلب أحوال الخوف والفزع والإغماء والبكاء التي كانت تستدعيها إمعاناً في الضراعة، ويلوح أنه كان له أثر شديد في نفسها : فبه كانت تستدعي البكاء مبتهلة ومصلية [4].

تطرق الى المحور الخامس بعنوان (عهد التنقل في حياة رابعة)، وذكر أن عهد التنقل فقد بدأ لما أن ذهبت إلى الحج، وهذا لا يتعدى المرحلة المباشرة لوقت التوبة، لأن فريضة الحج بالنسبة إلى الصوفي من الفرائض الضرورية في مستهل الحياة الروحية، على أن حجتها كان في البدء لمجرد إتمام الواجبات الدينية، ولا يمكن أن نفترض في حجاتها الأولى أنه وقعت لها تلك الكرامات المزعومة التي تنسب إليها في عدة روايات، إنما يلوح أن معنى الحج قد تطور في نفسها شيئاً فشيأ سنة بعد سنة، فتضاءل الجانب المادي وازداد الجانب الروحي المجرد، وتتابع تطور معنى الحج عندها في آخر حياتها على افتراض أن ذلك كان في توازمع تطور حياتها الروحية، نحو زيادة التجريد والتنزيه والعزوف عن الدنيا والتجرد عن كل ما فيها ، وقسم المؤلف هذا التطور الى ثلاث مراحل:[5]

المرحلة الاولى كانت فيها تؤدي تلك الفريضة كما يؤديها التاس، ولاتكاد ترى في الحج الا ما يراه المسلم العادي من التبرك بزيارة البيت العتيق وقبر الرسول (صلى الله عليه واله وسلم)، واستعادة آثار

1) شهيدة العشق الالهي، ص21-22.
2) شهيدة العشق الالهي، ص29.
3) صفة الصفوة، مخطوط الظاهرية، رقم 67، ج4، ص58ب.، ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج1، ص256.
4) شهيدة العشق الالهي، ص30-33.
5) شهيدة العشق الالهين ص35-43.

الإسلام الاول وإحياء معاني الايمان الوليد ليزيد المرء إيمانا، وهي إذن لم تكن تفعل الا ما يفعله بقية الناس ولم تهب الحج بعد معنى روحياً خاصاً، ولهذا تقع هذه المرحلة في العهد التالي لتوبتها مباشرة.

المرحلة الثانية كانت لما أن بدأت تؤدي الحج على قدميها أو متقلبة على أضلاعها وما إلى هذا من أنواع التعذيب التي يرى الصوفي على أنها ضرورية لمضاعفة ثواب الحج، وأن الصوفية كانوا يفتنون في التعذيب لأنفسهم وهم سبيل الحج حتى يزداد الاجر ويضاعف الثواب.

المرحلة الثالثة والأخيرة فقد زال كل معناها وعادت لاترى للكعبة معنى، وأمحت صورة الكعبة في نفسها لأنها تريد أن تجد من اقامتها، وبهذا تطور المعنى الحسي للحج فأصبح مجرد مناسبة لرؤية الله، بل صار في وسعها أن تستغني نهائياً ، عن هذه الفريضة، لأنها ستجد الله في نفسها ، فما حاجتها بعد إلى مشاهدته عند الكعبة! وهذا كله كانت تواكبه عملية التنزيه المستمر والتجريد المتصل في فهمها لسائر معاني الحياة الروحية، ثم أوت رابعة الى بيتها، واستغرقت في انقطاعها لله .

تناول المحور السادس بعنوان(الخلط بين رابعة الشامية ورابعة البصرية)، وذكر لابد من أن نبدد أولاً خلطاً وقع فيه المؤرخون القدماء وجاراهم عليه المحدثون الذين كتبوا عن رابعة، ذلك الخلط هو بين رابعة الشامية وبين رابعة البصرية أي (العدوية)، اما رابعة الشامية فهي بنت اسماعيل العدوية، ورابعة هذه بمثناة تحتية، وهي شامية، وهي زوجة أحمد بن أبي الحواري، وأسم الحواري ميمون من أهل دمشق، وتوفيت سنة 235هـ ن ودفنت برأس زيتا ببيت المقدس، بينما رابعة العدوية البصرية، توفيت على ابعد سنة لها هي 185هـ، ثم ان الجو التي عاشته رابعة البصرية العدوية، يدعوا الى عدم الزواج، لأن الزواج يتنافى مع مبادئ الصوفية بالوفاء للحياة الروحية العالية، وما تقتضيه من مجاهدات وانقطاع لله وانصراف عن الدنيا ، وإماتة للشهوات وارتفاع بالمضمون الروحي الباطن بارتفاع الجانب المادي الظاهر[1].

درس المحور السابع بعنوان (حبيب رابعة الوحيد هو الله)، وأشار ان رابعة العدوية، نذرت نفسها لله، وإذا كان الزواج الحق هو زواج الحب وحبيبها الوحيد هو الله، هنا تاتي نظريتها في الحب، فتؤيد نظريتها في الزواج، وهذا هو الجديد حقاً في مذهب رابعة في التجرد والعزوبية[2]، وهذا يفيدنا في مسالة هامة هنا ، اذ أن رابعة البصرية العدوية هي أن لم يتكلم أحد في الحب (أو المحبة) الالهي قبلها ، وأنها أول من أدخلت هذا المعنى في التصوف الإسلامي ، بالمعنى الحقيقي الكامل للحب، لامجرد التعبير بالألفاظ عنه تعبيراً ظاهرياً[3].

درس المحور الثامن وعنونه (الجانب العاطفي في الحب عند رابعة)، وذكر ان نظرية رابعة العدوية في الحب يدخل فيها معنى الخلة.، لكن هذا هو الجانب العملي أو الأخلاقي، أما الجانب العاطفي الخالص [4]، فيتمثل في بعض الابيات المنسوبة إليها، وفي الأقوال التي يروى أنها تفوهت بها

أحبك حبين: حي الهوى، وحباً لأ نك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا

1) شهيدة العشق الالهي، ص43-58.
2) شهيدة العشق الالهي، ص59
3) شهيدة العشق الالهي، ص61.
4) شهيدة العشق الالهي، ص64.

فما الحمد في ذاولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا[1]

في هذه الابيات تميز رابعة بين نوعين من الحب: حب الوداد أو الهوى، والحب الخالص، والأول حب ناقص، والثاني حب كامل، بيد أنها لا تختار هنا بين الواحد والآخر، إنما تأخذ بهما معاً، ومن هنا فنحن نفترض لهذه الأبيات عهداً مبكراً شيئاً، لم تكن قد بلغت فيه بعد المقام الأعلى للحب[2].

درس المحور السادس بعنوان (الجانب الايجابي في رسالة رابعة)، وأشار الى رابعة التي كان عليها أن تناضل في طريق الحب حتى تحيل الجانب السلبي إلى جانب إيجابي، شأن كل صوفي حق، لان السلب هو دور تمهيدي فحسب، فلو اقتصر عليه الصوفي لما وصل، ويمكن أن يشبه الامر هنا بأمر العقل الفعال وأمر العقل المنفعل: فهذا الاخير مرحلة تمهيدية، فيها تقبل خالص للصور منطبقة على المحسوسات، ولايزال المرء فيه عالة على الخارج.، وإنما يبلغ العقل مرتبة الكمال ، إذا استحال الى عقل فعال، يبدع المدركات ويفيض بالمعقولات، فمثل العقل الفعال والعقل المنفعل هو مثل الدور الايجابي والدور السلبي في طريق التصوف، ومنه طريق المحبة، لكن الانتقال والتصاعد من دور السلب الى دور الايجاب، ملئ بالمتاعب والمجاهدات وألوان الألم وخيبة الأمل[3] .

تناول المحور العاشر من هذا الكتاب بعنوان(رابعة والله وجهاً لوجه)، وذكر أن رابعة تقدمت وغير هيابة، وبكل شجاعة في الطريق الى الله ، أي رابعة بدأت الخطوة الاولى في المرحلة الحاسمة النهائية، ومشت أول الامر على استحياء، اذ لايزال يشيع في مثل قولها الذي لابد ان ينتسب الى ذلك[4]، وهو ما رواه المناوي من أن سفياناً الثوري قال لرابعة: (ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ماعبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته، فأ كون كالأجير السوء، عبدته حباً وشوقاً إليه)[5] ، فهي هنا تقتصر على وصف حالها الجديدة، وهي أنها بدأت تدخل في ملكوت (الحب الذي (هو) أهل له)، فلم تعد تحب الله إلا لله، لاطمعاً في الجنة ولا خوفاً من عذاب النار، فلهجتها لا تزال هادئة، وكأنها إنما تريد أن تميز بين صنفين من العابدين: صنف يعبد الله على رغبة أو هبة، وصنف قد صار بمعزل عن الرغبة والرهبة، وارتفع إلى معنى الحب الأعلى الذي لا يطلب من وراء ذلك غير وجه المحبوب.، وتكتفي بأن تدمع الحب الأول بأنه حب أجراء السوء ، اما الآخر فهو حب العابدين المتقين[6].

تناول المؤلف المحور الحادي عشر الموسوم (الفناء في الله وعبادة الألم)، ويشير المؤلف الى الى أن الحياة الروحية عند رابعة تطورت إلى الذروة من التجريد والتسامي عن كل ما هو حسي، وواكب هذا استغراقها الكامل في الله، بحيث أقفات أبواب الحواس، وإلى هذا ينتسب ما ورد لنا من أقوال تنبئ عما آلت إليه حالها من إماتة الحواس، بحيث يمكن أن يقال إنها ماتت من الدنيا، فقد ذكر أن رابعة العدوية كانت في الصلاة، فسجدت على البواري، فدخلت قطعة قصب في عينها فلم تشعر بها حتى إذغ انصرفت من الصلاة، أي إلى أن انصرفت من الصلاة، فالحال التي تعبر عنها هذه القصة هي حال الفناء عن

1) الزبيدي، محمد بن محمد مرتضى، اتحاف السادة المتقين، ج9، ص576.
2) شهيدة العشق الالهي، ص65.

3) شهيدة العشق الالهي، ص75-76.
4) شهيدة العشق الالهي، ص78-79.
5) عبد الرؤوف المناوي، طبقات الصوفية، مخطوط الظاهرية، رقم 164، ورقة105.، ابن خلدون، شفاء السائل، استانبول، 1908م، ص29.
6) شهيدة العشق الالهي، 79.

الوجود الخارجي، وذلك بالفناء في الوجود الباطن، وجود الحق، بحيث تستهلك فيه، فيغيب عنها الوعي وتؤول إلى حال من اللاشعور الكامل، فيسقط عنها التمييز[1].

وهي الحال التي يشير اليها الصوفية بالرمز بحكاية صواحب يوسف (عليه السلام) اللواتي قطعن أيديهن (لفناء أوصافهن، ولما أسرارهن من لذة النظر إلى يوسف مما غيبهن عن ألم مادخل عليهن من قطع أيديهن) فيرمز بهذه الحكاية عند الصوفية إلى ما يحب أن يكون عليه الصوفي في حال فنائه عن دنيا الحواس [2].

أن المحور الثاني عشر جاء بعنوان (حملة رابعة على الأخرويات وانكارها حقيقة الجنة والنار)، وذكر المؤلف أن رابعة العدوية ، تابعت حملتها على الأخرويات بالصورة الحسية المفهومة عند سائر الناس ، وغذي هذا كله نمو المحبة والرحمة، بحيث تشمل الناس أجمعين، فلم يعد يعينها خلاصها وحدها بقدر ما يعينها خلاص الآخرين معها[3].

ولنا في هذا الباب قصة رواها الأفلاكي في (مناقب العارفين) بالفارسية، وهذه ترجمتها: (ذات يوم رأى جماعة من الأصحاب رابعة وفي إحدى يديها نار ، وفي الأخرى ماء وهي تعدو مسرعة – فسألوها: أيتها السيدة! إلى أين أنت ذاهبة؟ وماذا تبتغين؟ فقالت: أنا ذاهبة إلى السماء كي ألقى بالنار في الجنة وأصب الماء على الجحيم فلا تبقي هذه ولا تك ، ويظهر المقصود، فينظر العباد إلى الله دون رجاء ومن غير خوف، ويعبدونه على هذا النحو: (بلا مطمع في جزاء أو خوف من عقاب)- ذلك أنه لو لم يكن ثمت رجاء في الجنة وخوف من الجحيم، أفكانوا يعبدون الحق ويطيعونه)[4] .

أن رابعة في هذه الدعوة قد بدأت بنفسها، فهي غير راغبة في الجنة ولا وجلة من النار، ثم ارادت أن تخلص الناس نهائياً من فكرة الجنة والنار، لأنها رأت فيهما مصدراً لإفساد المعنى الحقيقي للعبادة، إذ العبادة الحقة هي تلك التي تقام لوجه الله غير طالبة جزاءاً ولا شكوراً، هي تلك التي لا تكون على حرف، ولا بسبب خوف، ولا يدخل فيها أي معنى من معاني الترغيب والترهيب ، إذ ان المقصود الأبعد في ذهن رابعة ، هو أن تسمو بالحياة الدينية في الإسلام، بأن تزيل ما في القرآن الكريم من معان حسية وتحيلها إلى معان روحية خالصة، فلها الفضل الأكبر في بدء هذه الحركة التي لها دور بارز في الحياة الروحية في الاسلام [5].

تناول المحور الثالث عشر بعنوان (الكرامات المنسوبة الى رابعة وصياغتها وفقاً للنموذج العام للصوفي)، وذكر ان لرابعة العدوية عدة كرامات، يذكرها المؤرخون، وقد حاول العطار منذ البداية ان يحيطها بالكرامات، وخاصة الكرامات التي تتعلق برابعة منذ ميلادها، وهو حرص ان يملأ ترجمته الخيالية لرابعة بألوان من الكرامات لا حصر لها: فحمارها ينفق في الصحراء وهي بسبيل الحج، فتدعوا الله، فينهض الحمار مليئاً بالحياة، وهي تعلم الغيب كما يظهر من القصة التي رواها عن أرغفة الخبز التي

1) شهيدة العشق الالهي، ص87.
2) الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، نشره اوبري، القاهرة، 1933م، ص95.
3) شهيدة العشق الالهي، ص90.
4) الأفلاكي، مناقب العارفين، مخطوط باريس، قسم فارسي قديم، رقم 114، ورقة 114 أ.
5) شهيدة العشق الالهي، ص91-92.

أرسلت بها إليها سيدة مع خادمتها! واللصوص لا يستطيعون السرقة منها، وكأن الله يحرس كل مالها.، وإن لها معهم لقصصاً عديدة، ذكرها بعضها العطار، وذكر غيرها آخرون[1]

وأكثر الكرامات التي يرويها العطار لرابعة ، قد جرت مع الحسن البصري، مما يؤكد جانب الخيال والاختراع إلى أبعد حد فيها: فهو يذكر كذلك أن الحسن البصري وبعض أصحابه ذهبوا إلى رابعة وكان الوقت ليلاً فاحتاجوا إلى مصباح فلم يجدوا، فوضعت رابعة طرف أصابعها في فمها ث أخرجتها، فظل يشع منها حتى مطلع الفجر نور كأنه نور مصباح، والعطار يفسر هذا أيضاً فيقول(إن سأل أحد كيف حدثت هذه الكرامة، فأخبره أن النور كان يشع من يد موسى (عليه السلام)، فان قيل لك إن موسى (عليه السلام) كان نبياً وأن رابعة لم تكن نبية: فأجبه قائلاً: إن من ينفذ الأوامر التي أتى بها الأنبياء يشارك في قدوتهم على الإتيان بالمعجزات.، وكما أن للأنبياء معجزات، فإن للأولياء كرامات)[2] .

وكل هذه الكرامات هي من الأنواع المشهورة والمألوفة في الترجمات الخيالية للصوفية ، ويرى المؤلف أن ما يتصل برابعة العدوية، أن هذه الاسطورة لم تنشأ إبان حياتها، وإنما نشأت متأخرة بعد هذا بقرنين على أقل تقدير[3].

درس المحور الرابع عشر بعنوان (أسطورة رابعة العدوية)، ويشير الى هذه الاسطورة التي ترن أصداؤها في الخيال الشعبي بكل قوتها، وذلك في العبادة التي تقام حول قبرها، وهذا يقودنا غلى الحديث عن قبرها، هذا المختلف في مظنة وجوده أشد الاختلاف، فقوم قالوا إن قبرها بظاهر القدس الشريف على راس طورزيتا، وهي قرية الطور إلى شرق القدس[4].

فأبو محمود بن إبراهيم بن سرور المقدسي(ت: 765هـ) يقول: قدمت(أي رابعة) بيت المقدس وماتت به.، وقبرها بظاهر القدس الشريف على راس طورزيتا، وهو ظاهر يزار وكانت وفاة رابعة سنة خمس وثلاثين ومائة)[5]، كذلك نرى ابن خلكان يقول: (وقبرها يزار وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور)[6].

وهنالك فريق ثان يرجح بين التأييد والإنكار فيما يتصل بكون هذا قبر رابعة العدوية صاحبتنا، ومنه ابن العماد في (شذرات الذهب)، يقول: (وقبرها (أي رابعة) على رأس جبل يسمى الطور بظاهر بيت المقدس، وقيل ذلك قبر رابعة أخرى غير العدوية)[7].

وفريق ثالث أنكر أن يكون ذلك قبر رابعة العدوية، ويشير المؤلف الى ان بطوطة في رحلته يقول عن القدس ومزاراته : ومنها قبر رابعة البدوية منسوبة إلى البادية، وهي خلاف رابعة العدوية الشهيرة[8]

1) شهيدة العشق الالهي، ص92-93.
2) فريد الدين العطار، تذكرة الاولياء، نشره نيكلسون، ج1، ص65.
3)شهيدة العشق الالهي ، ص96.
4) شهيدة العشق الالهي، ص96-97.
5) المقدسي، ابراهيم بن سرور ، مثير الغرام، طبع القدس، 1946م، ص49.
6) وفيات الاعيان، القاهرة، 1275هـ-1858م، ج1، ص256.
7) ابن العماد ، شذرات الذهب، القاهرة، 1350هـ- 1931م، ج1، ص193.
8) شهيدة العشق الالهي، ص98.

على أن الذي فصل في المسألة بصورة قاطعة هو ياقوت الحموي في (معجم البلدان)، تحت لفظ (المقدس) فقال: وهو يتحدث عن ابن طاهر بن علي بن احمد الحافظ المعروف بابن القيسراني: ومات ابن طاهر ودفن عند قبر الذي على جبلها (جبل القدس) ، يقال له قبر رابعة العدوية، وليس هو قبرها، وانما قبرها بالبصرة، وأما القبر الذي هناك فهو قبر رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري الكاتب ، وقد اشتبه على الناس)[1].

واستخلص المؤلف أن رابعة العدوية توفيت في البصرة ، وأنه لابد أن يكون لها قبر هناك، هو الذي زاره أو أمكن أن يزوره محمد بن أسلم الطوسي ونعمى الطرطوسي- إن صح الخبر الذي أورده العطار في جملته، لا في تفصيله طبعاً! ولعل القبر تهدم في أحد التخريبات التي أصابت البصرة فدمرتها عن آخرها أو كادت[2] .

أن المحور الخامس عشر والأخير من هذا الكتاب جاء بعنوان(تاريخ وفاة رابعة والاختلاف حوله)، ويشير المؤلف انه بقي علينا أن نعرض لمسألة تاريخ وفاة رابعة، وهنا الأمر يختلط مرة اخرى، فهناك رواية يلوح أن ابن الجوزي صاحبها تقول إن وفاتها كانت في سنة خمس وثلاثين ومائة[3].

فقد ذكر ابن خلكان أن ابن الجوزي ذكر هذا التاريخ في كتابه (شذور العقول)، على ان ابن الجوزي في (صفة الصفوة) لم يذكر لها تاريخ وفاة[4] .

ويضيف المؤلف أن من ذكر هذا التاريخ ابن تغرى بردى في (النجوم الزاهرة)، وكذلك المرتضى الزبيدي في (أتحاف السادة)، وابن شاكر الكتبي في (عيون التواريخ)، وابن العماد في (الشذرات)، وهناك رواية ثانية تقول إن تاريخ وفاتها سنة ثمانين ومائة.، وصاحبها الذهبي، اذ قال ابن تغرى بردى في كلامه عن سنة ثمانين ومائة(الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة ك قال: وفيها توفى... ورابعة العدوية، قلت: وقد تقدمت وفاتها في قول غير الذهبي)، ومن الذين تابعوا الذهبي على هذا التاريخ عبد الرؤوف المناوي في (طبقات الصوفية) فقال: (ماتت سنة ثمانين ومائة).، وقيل غير ذلك[5].

ويشير المؤلف الى رواية ثالثة تقول إنها توفيت سنة خمس وثمانين ومائة، هذا ما ذكره ابن خلكان وابن شاكر الكتبي، ويرى المؤلف أن تاريخ 135هـ مستبعداً ، بسبب لقائها بالحسن البصري، لكن موضع الصعوبة بالاختيار بين سنة 180هـ و185هـ ، فرابعة العدوية توفيت إما في سنة 180هـ أو سنة 185هـ حسب راي المؤلف[6]،وختم المؤلف كتابه بنصوص منشورة وغير منشورة عن أخبار رابعة العدوية ، ثم فهرس الكتب ، وفهرس الأعلام .

الخاتمة:

لقد حظيت رابعة العدوية بشهرة واسعة في التاريخ الإسلامي بصفة عامة، وفي تاريخ التصوف الإسلامي خاصة، وتعتبر مؤسسة أحد مذاهب التصوف الإسلامي، وهو مذهب الحب الالهي، وتعد مثالاً

1) ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحت لفظ (المقدس)، ج4، ص601.
2) شهيدة العشق الالهي، ص102.
3) شهيدة العشق الالهي، ص102.
4) ابن خلكان، وفيات الاعيان، القاهرة، 1275هـ، ج1، ص256.
5) شهيدة العشق الالهي، ص102.
6) شهيدة العشق الالهي، ص104.

في القرن الثاني الهجري لهذه الظاهرة التي تذكر دائماً في حب الله عز وجل ، ولهذا استحقت بحق العشق الالهي، وهي أول من تجرأت على معجم الحب الإنساني المتدين ودفعها الى مرتبة الحب الالهي، فقد حولت رابعة العدوية مجرى حركة الزهد من زهد مع خوف الى زهد وحب الله لذاته دون أي طمع في جنة أو خوف من نار، فهي اخرجت الحياة الروحية عن هذا الزهد الذي قوامه الخوف من النار والشوق الى الجنة ، وجعلته نوعاً أخر أساسه الله تعالى وطاعته والانس به والشوق اليه.

المصادر والمراجع

1 – ابن تغرى، جمال الدين يوسف بن الامير سيف الدين بردى، النجوم الزاهرة ، دار الكتب المصرية، 1923م.

2 - الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب بن فرارة، البيان والتبين، القاهرة، 1332هـ.

3 – ابن الجوزي، ابو الفرج عبد الرحمن بن ابي الحسن علي بن محمد القرشي، صفة الصفوة، مخطوط الظاهرية.

4 – الحموي، شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت، معجم البلدان، تحت لفظ (المقدس).

5– ابن خلكان، شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد بن ابراهيم بن ابي بكر، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، القاهرة، 1275هـ- 1858م.

6 – ابن خلدون، ابو زيد عبد الرحمن ، شفاء السائل، استانبول، 1908م.

7 – الزبيدي، محمد بن محمد بن مرتضى، أتحاف السادة المتقين.

8 – الشعراني، عبد الوهاب بن احمد بن علي الانصاري، لواقح الانوارفي طبقات الاخيار.

9 – عبد الرحمن بدوي، شهيدة العشق الالهي رابعة العدوية، ط2، مكتبة النهضة المصرية، 1962م.

10 – العطار، فريد الدين ابو حميد بن ابي بكر ابراهيم، تذكرة الاولياء، نشرة نيكلسون.

11 – ابن العماد، عبد الحي بن احمد بن محمد، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، القاهرة، 1350هـ- 1931م.

12 – الافلاكي، شمس الدين احمد ، مناقب العارفين.

13 – القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة ابو القاسم، الرسالة القشيرية، القاهرة، 1330هـ- 1912م.

14 – الكمشخانوي، ضياء الدين احمد بن مصطفى، جامع اصول الدين في الاولياء، القاهرة، 1328هـ- 1910م.

15 – الكلاباذي، ابو بكر محمد بن اسحاق، التعرف لمذهب أهل التصوف، نشره اوبري، القاهرة، 1933م.

16 – المقدسي، ابراهيم بن سرور ، مثير الغرام، طبع القدس، 1946م.

17 – المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف، طبقات الصوفية، مخطوط الظاهرية.